جامعة الموصل

كلية الآداب

القسم: علم الاجتماع

عنوان المحاضرة: الثقافة منهج حياة

المادة الدراسية: عولمة وثقافة

المرحلة الدراسية: الدكتوراه

مدرس المادة: أ.د.حارث علي حسن العبيدي

العام الدراسي: 2025-2026

المحاضرة الأولى

الثقافة منهج حياة

أولا: المقدمة

لكي يعيش الإنسان ويستمر بقاؤه، غيّر كل ما حوله وخلق في مجالات الاتصال بالعالم الخارجي بيئة صناعية ثانية، فشيّد المنازل والأبنية «الإيوائية» أو الملاذات (Shelters) ومهد الطرق، واستعمل وسائل النقل. فقد أشبع الإنسان العديد من احتياجاته بفضل المصنوعات (Artifacts) حتى في أبسط أنواع الحياة الإنسانية، حتى قيل إن إنسان الطبيعة لم يوجد بعد (The Man of) (Nature. Does Not Exist. وهذا هو مغزى الثقافة ومعناها بصفتها لحظة ما بعد الطبيعة حسب العبارة الأنثروبولوجية الدارجة، أي لحظة التاريخ الذي يبدأ مع انتقال فعالية الإنسان إلى بناء النظام الاجتماعي على أنقاض النظام الطبيعي. لذلك كان من المستبعد الاعتقاد بأن الأطفال الذين قيل بأنهم تركوا في الغابات أوقاتاً طويلة، قد تمكنوا من البقاء في حالة «انعدام ثقافي» (Cultureless Condition)، ذلك أنه إذا ما قدر لطفل أن يعيش في هذه الظروف، وهذا مستبعد، فإنه سوف يبدأ من جديد في خلق ثقافة، لأن من طبيعة الإنسان أن يصنع وسائل للحياة وأنماطاً للعيش.

وهناك الكثير من الشواهد عن أطفال نشأوا في بيئات منعزلة لإيضاح الدور الذي تلعبه الثقافة في حياة الأفراد، فهي بمثابة رأس المال الذي يبدأ به الفرد حياته، فإذا ما حرم منه فقد الكثير من مقوماته البشرية، حتى القدرة على الكلام أو الاستجابة، وكان عليه أن يبدأ من جديد. لقد انتقلت نماذج المعاني الثقافية من خلال الجماعة واستقرت لدى كل فرد عن طريق التفاعل الاجتماعي، ويمكن اعتبار المجتمعات نفسها هي حصيلة ثقافة ، إلا أن لكل من المجتمع والثقافة دلالة مختلفة، فإذا اعتبرنا أن المجتمع هو مجموعة منظمة من الأفراد يتعايشون بطريقة حياتية معينة، فإن الثقافة تصبح بذلك، تلك الطريقة الحياتية المعينة. وإذا اعتبرنا المجتمع هو مجموعة من العلاقات الاجتماعية، فإن الثقافة تعتبر بهذا المعنى محصول هذه العلاقات.

ولو لاحظنا مختلف تعريفات مفهوم الثقافة الذي أورده معظم علماء الاجتماعيات، لوجدنا أنه لا يخرج في خلاصته عن القول بأن الثقافة عبارة عن تلك المعايير المشكلة لنظام العقل والسلوك في مجتمع ما، أو لدى جماعة ما، والتي تحدد نظرة الفرد والجماعة لنفسها ،والآخرين، والكون من حولها، وبالتالي طبيعة السلوك. ففي التعريف الذي قدمه تايلور (E. B. Taylor) مثلاً، وهو مؤسس المفهوم في الدراسات الانثروبولوجية، نجد أن الثقافة عبارة عن : ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة الإيمان الفن الأخلاق القانون، الأعراف، وأية قدرات وعادات يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في جماعة.
فالثقافة في خاتمة التحليل، هي التي تقف وراء النشاط الحضاري للإنسان، وهي التي تجعل الحضارات الإنسانية تختلف عن بعضها نتيجة اختلاف المعايير (الثقافية) المحددة للنشاط الإنساني عامة ولكن يبدو أننا هنا قد غرقنا في التجريد والتركيب الذي نحاول الابتعاد عنه قدر الإمكان، ولم نصل بعد إلى جينات» الثقافة، كما هو المتوخى.

ثانيا : العلاقة بين المجتمع والثقافة

ينطلق باستيد الذي يجمع على حد سواء، بين تكوينه في علم الاجتماع وفي الأنثروبولوجيا من فكرة أن الثقافي لا يمكن أن يُدرس بمعزل عن الاجتماعي. كان قصور الثقافة الأمريكية الأكبر، بالنسبة إليه، هو عدم وصل العلاقة بين الثقافي والاجتماعي. هناك خطر يكمن في الثقافة وهو اختزال الظواهر الاجتماعية إلى ظواهر ثقافية (وعلى العكس يمكن القول إن في ما يمكن أن نسميه اجتماعوية» يكمن خطر اختزال الظواهر الثقافية إلى ظواهر اجتماعية).

إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي المخلوقات. فالعادات والتقاليد والأفكار التي يشارك فيها أفراد المجتمع والتجارب التي يمر بها الإنسان تستقر في اعماقه ويستخدمها المجتمع جيلاً بعد جيل ويحولها إلى قيم وتراث جماعي.

وقد استقطب هذا المثلث المفاهيمي (المجتمع – الثقافة – الشخصية) اهتمام الباحثين والأكاديميين ولا يزال. ولم يقتصر هذا الاهتمام على فرع من العلوم الإنسانية بحد ذاته، بل شمل مختلف الاختصاصات. وإن كان علم النفس يركز على الشخصية مثلاً، لكنه لا يهمل أثر الثقافة والمجتمع فيها، وكذلك الأمر مع الأنثروبولوجيا التي تركز على الثقافة، لكنها تتعامل معها في المؤثرات الاجتماعية المختلفة. إن العلاقة وثيقة بين المفاهيم الثلاثة، وهذا ما يركز عليه السيوسيولوجي، فالتفرقة بينها هي مسألة نظرية، ذلك أن الظواهر التي تعبر عنها لا ينفصل بعضها عن بعض في الحقيقة والواقع.

فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، وعناصر المجتمع الأولى هي الأفراد، والفرد كائن اجتماعي، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة، وفيه تتكوّن شخصية الإنسان وتحمل سماته. وعليه فإن الثقافة طريق خاص ومتميز لحياة الجماعة، ونمط متكامل لحياة أفرادها. إنها تعتمد على وجود المجتمع ومن ثم تمده بالأدوات اللازمة لاطراد الحياة فيه، بدائية أكانت أم حديثة. إن الفرد في المجتمع قد يتفق مع بعض الناس في كل شيء، كما قد يتفق مع بعض الناس في بعض الأشياء، وقد لا يتفق مع أحد في أشياء أخرى. تلك هي مظاهر الاختلاف والاتفاق بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، والتي تعود إلى الأسلوب الذي يعتمده الناس في حياتهم والذي يعتمد بشكل أساسي على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، فضلاً عن عوامل أخرى تتعلق بالبيئة الطبيعية المحيطة. من هنا تبرز أهمية الثقافة كعنصر لا غنى عنه في الدراسة التي تهدف إلى التعرف بالحياة الاجتماعية للناس وبالتالي تفسيرها وفهمها.

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها، كما أن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها ومقوماتها المادية التي تتألف من طرائق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع في قضاء حوائجهم، والأساليب التي يضعونها لاستخدام هذه الأدوات فأدوات الصيد والزراعة والقتال أدوات ثقافية، والأزياء وأسلوب الترفيه أيضاً أشكال ثقافية، وكلها عرضة للإغناء والزيادة والتعديل بفعل التطورات التي يتعرض لها المجتمع. وللثقافة أيضاً مقوماتها المعنوية والتي تتمثل في مجموع العادات والتقاليد التي تسود المجتمع والتي يتوارثها أفراده جيلاً بعد جيل، مثل القانون أو العرف الذي يحكمهم أو القيم والقواعد الأخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات بين بعضهم البعض. وبما أن الإنسان كائن اجتماعي، فإن سلوكه يصدر في أشكال وأنماط منتظمة، فيها شيء من الاطراد والتواتر وفي ملاحظتنا لكيفية ممارسة الإنسان شؤون حياته اليومية، وما يريده ذلك من ألوان النشاط، نجد أن بعضها يتكرر بالصورة نفسها تقريباً. إن ملاحظة هذه الأنماط السلوكية، وإن كانت لا تعني الاتفاق التام بين سلوك الناس في المجتمع، إلا أنها تعني أن هناك عناصر مشتركة في هذا السلوك يمكن تجريدها.

ثالثا: الثقافة معيار للحياة الاجتماعية

الواقع أنه بدون تفاعل لا تكون هناك حياة اجتماعية أو ثقافية. فبمجرد وضع الأفراد في جوار مادي بنشأ عنه نوع من التفاعل البسيط، لكنه يأخذ بالتعمق عندما يتحدث ويعمل الأشخاص أو الجماعات مع بعضهم البعض، في إطار هدف معين أو عندما يتنافسون أو يتشاجرون بعضهم مع بعض. وقد يحدث التفاعل ويكون مباشراً (Direct) وقد يكون رمزياً (Symbolic) حين يتكون من أصوات أو إشارات أخرى أو لغة سواء أكانت منطوقة أو مكتوبة.

والرمز حسب مفهوم وايت هو الشيء الذي يكتسب معناه أو قيمته ممن يستخدمونه. إذاً فالمعنى ليس أصلاً في الرمز. فاللون الأسود ربما يبدو بالنسبة إلينا لون الحزن الوحيد. لكن الصينيين التقليديين يعتبرون الأبيض لون الحداد في أي حال ينشأ معنى الرمز من التفاعل الإنساني؛ فالتواصل الرمزي إن بالكلام أو بالإيماءات الغمز أو الابتسامة على سبيل المثال) يُشكل قاعدة جميع السلوك الاجتماعي الحقيقي.

ولا يمكن أن تنشأ ثقافة أو يقوم نظام اجتماعي بعيداً من احتمال التفاعل بين البشر. وسلوك البشر بالنتيجة ليس مجرد فعل ورد فعل مثير (Interstimulation) أو منبه واستجابة (Response)، إنما هو عملية تأويل للمنبه والاستجابة. فنحن لا نتجاوب مباشرة مع أعمال الآخرين وأفعالهم وإنما مع المعنى الذي نسبغه بأنفسنا على تلك الأعمال، أي عن طريق قراءة الرموز. فإذا لم نتشارك إلى حد كبير في الرموز، فسوف يتعذر علينا أن نعيش الحياة كما نعرفها، فالبشر لا يكفون عن السلوك الرمزي والرسائل غير المباشرة، وعندما يفعلون ذلك يتوقعون ويفترضون أن المتلقي قد فهم المراد. وبدون هذا سوف ينعدم التواصل.

لو نظرنا إلى مختلف تعريفات مفهوم الثقافة الذي أورده معظم علماء الاجتماعيات، لوجدنا أنه لا يخرج في خلاصته عن القول بأن الثقافة عبارة عن تلك المعايير المشكلة لنظام العقل والسلوك في مجتمع ما، أو لدى جماعة ما، والتي تحدد نظرة الفرد والجماعة لنفسها ،والآخرين، والكون من حولها، وبالتالي طبيعة السلوك. ففي التعريف الذي قدمه تايلور (E. B. Taylor) مثلاً، وهو مؤسس المفهوم في الدراسات الانثروبولوجية، نجد أن الثقافة عبارة عن : ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة الإيمان الفن الأخلاق القانون، الأعراف، وأية قدرات وعادات يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في جماعة. هذا التعريف، الذي يتفق مع التعريف الماركسي للبنية الفوقية إلى حد كبير، تجده

الثقافة اذن هي معايير للعقل والسلوك، تحدد معنى الحياة، التي لا معنى لها بدون هذه المعايير، ورموزاً تحدد غايات الحياة التي لا غاية لها بدون تلك الرموز بمعنى أن الثقافة هي إجابة لسؤال الفرد والجماعة عن كيف ولماذا وإلى أين، أي الغاية من الوجود وكل ذلك يسم نشاط الفرد والجماعة بميسمه (الفن، الأخلاق العرف قواعد الأدب العلاقة بين الفرد والجماعة، الفرد والسلطة، الجماعة ،والسلطة، الخ).

فالثقافة في خاتمة التحليل، هي التي تقف وراء النشاط الحضاري للإنسان، وهي التي تجعل الحضارات الإنسانية تختلف عن بعضها نتيجة اختلاف المعايير (الثقافية) المحددة للنشاط الإنساني عامة ولكن يبدو أننا هنا قد غرقنا في التجريد والتركيب الذي نحاول الابتعاد عنه قدر الإمكان، ولم نصل بعد إلى جينات» الثقافة، كما هو المتوخى.

عند تحليل تعريف الثقافة، نجد أن الثقافة في جذورها عبارة عن معايير للعقل والسلوك. ولكن السؤال يبقى مثاراً هنا ولماذا يحدد الإنسان معايير مقيدة ومحددة للعقل والسلوك ؟ ألا يستطيع الانطلاق دون معايير؟ الحقيقة البسيطة تقول كلا. فالسلوك مهما كان بسيطاً، لا يكون ولا ينبثق إلا إذا كان هناك غاية للفعل ومعنى. فبعيداً عن الأفعال والسلوكيات الغريزية المدفوعة والمحدد معناها بغايات غريزية، فإن الأفعال الأخرى لا تنبثق إلا بغاية في الذهن قبل أن يكون الفعل أو السلوك. فالأفعال الغريزية لا تتحدد من خلال غابات ذهنية واعية (بمعنى مدركة ذهنياً)، بقدر ما هي بواعث موروثة بيولوجياً، ذات غايات متعلقة بالوجود البيولوجي ابتداء. ولأجل ذلك لا نجد ثقافة، وبالتالي حضارة، للكائنات الفطرية، حتى وإن كانت تبدو منظمة مثل النمل والنحل. فالثقافة والحضارة مصدرها المحددات المباشرة للفعل غير الغريزي ومن ذلك تنشأ الثقافة.

رابعا: اللغة كموجه للحياة الثقافية

لا يمكن ان نحدد في أية نقطة في التطور البشري ظهرت اللغة لأول مرة، أو أن نقتفي أثر السبيل الذي انتهجته في تطورها حتى بلغت فعاليتها الحالية في نقل الأفكار. وأكثر صعوبة من هذا أن نتكهن بالشكل الذي كانت عليه اللغات الأولى، إذ لا تتوافر لدينا معلومات عن أية لغة سبقت عام ٤٠٠٠ .ق.م. تقريباً عندما اخترعت الكتابة للمرة الأولى. وبالنسبة إلى مليون عام أو أكثر من تطور البشر فإن ستة آلاف عام تعادل خمس دقائق من يوم بشري ليس إلا. وما إن تعلم الإنسان الكتابة حتى كان تطور اللغة قد اكتمل. إن أصل اللغة وتطورها سيظلان دوماً مجالاً لمختلف الاجتهادات الفكرية، أما وظائف اللغة فبالإمكان التحقق منها بسهولة.

ان الطفل في الأشهر الأولى من حياته يعبر عن حالاته النفسية بالإشارات والحركات وبما يسميه علماء النفس الكلمة . الجملة». والطفل يندمج في مجتمعه تدريجياً، ومقياس اندماجه في المجتمع هو درجة نموه في تعلم اللغة. ذلك أن اللغة حوار، أي علاقة مع الآخرين (٧)، أي أنها فعل تفاعل، ولا يمكن أن تنشأ إلا إذا تكونت هذه العلاقة، حتى عندما يخاطب المرء نفسه في حوار منفرد أو وحيد الطرف - هذا إذا لم يكن مصاباً بمرض عقلي - فهو يتصور في ذهنه آخر يحاوره ويرد عليه.

واللغة عمل وفكر في وقت واحد، وإنها عمل وسلوك لأننا بواسطتها نسعى للتأثير في غيرنا إذ ندفعه بهذا الاتجاه أو ذاك. فلا يوجد كلام لمجرد الكلام أو كتابة لمجرد الكتابة، فهذا فعل وظيفي له غاية، حتى عندما نتأمل شخصياً في أفكارنا، فنحن نقوم بهذا كي نفهمها ونقومها ونتحرك بعدها وفقها واللغة أيضاً فكر وبنية، ذلك أن أي لغة تحمل في فهمها مسبقاً رؤية للعالم يتبناها بالضرورة أولئك الذين يتكلمونها. وقد كانت هذه الفرضية موضع اهتمام الباحثين أمثال

والثقافة بدون لغة هي ضرب من المحال، وكلما صارت الثقافة أكثر تعقيداً، ازدادت الحاجة إلى الاتصال، لذلك فإن القدرة على التفكير الرمزي والمجرد هو ما تحتاج إليه اللغة. فاللغة والقدرة على الاتصال بها تعتبران شرطاً أساسياً وضرورياً لأي مجتمع إنساني، ولا يمكن تصور ثقافة بدونه. فعن طريقه تمكن الإنسان من إبداع المعرفة وتكوين ما نسميه بالسلوك الثقافي. وبالقدر نفسه فإن استخدام اللغة لا يعني قدرة الإنسان على الاستجابة إلى الرموز فقط، بل يعني كذلك قدرته على ابتكارها. وبالتالي يمكن القول بأن الرمز هو الوحدة الأساسية للثقافة شأنه في ذلك شأن الخلية في جسم الكائن الحي والعالم الثقافي الذي يدركه الإنسان هو عالم رمزي يعبر عنه بالرموز، ومن خلالها أصبح قادراً على ابتكار المعاني وإكساب الطبيعة وأشيائها خصائص جديدة أمكن نقلها من جيل إلى جيل، على أساس من التمييز والاختيار والتنبؤ.

فاللغة أداة لكل من الفكر والاتصال وهي بهذا تعتبر بحق أهم عنصر في بناء الإرث البشري الاجتماعي وبفضلها تمكن الناس من أن ينقلوا بعضهم إلى بعض فكرة واضحة عن أوضاع ليست موجودة، وعن السلوك المناسب لها. ومعها لم يعد السلوك المتعلم متوقفاً على المصادفات، وإنما أمكن نقل المعرفة التي يمتلكها كل جيل إلى الجيل الذي يليه. وإذا كانت الثقافة البشرية مدينة للغة في ثروة محتواها التي تميزها عن الإرث الحيواني الاجتماعي، فإن اللغة نفسها جزء لا يتجزأ من الثقافة. إن ربط قيم رمزية بمجموعات من الأصوات والقدرة على إخراج هذه الأصوات لا يُشكّل لغة، ذلك أنها – أي اللغة – لا تظهر إلى الوجود إلا عندما يتعلم اثنان من الأفراد أو أكثر ربط القيم ذاتها بالمجموعات الصوتية نفسها، واستعمال تلك المجموعات الصوتية في نقل الأفكار. أما الترابط بين الأصوات والأفكار فهو اعتباطي صرف. فقد تحمل مجموعة صوتية واحدة معاني مختلفة كلياً تبعاً لاختلاف اللغات، أو تحمل عدداً من المعاني في اللغة الواحدة. وهكذا فإن اللغة شكل من أشكال السلوك المتعلم المنقول، وعلى الفرد أن يكتسب هذا الشكل بالطريقة ذاتها التي يكتسب بها أية مادة أخرى من مواد الثقافة التي ورثها.

خامساً: المناهج الثقافية والحياة الاجتماعية

يبدأ هاتشون، كأحد العلماء في مجال تحليل الثقافة، **من الأسرة** باعتبارها العنصر الأول، ثم ينتقل إلى اللغة والفن والمعرفة والعادات والإقليم والسياسة وما إلى ذلك لتحديد العناصر المهمة أثناء محاولته دراسة الثقافة. عند الحديث عن الثقافة ومجال الثقافة، فإن أهمية الخرائط، كواحدة من الطرق الشائعة لتوضيح الثقافة وعناصرها، تستحق الذكر. إن رسم خريطة لمنطقة داخل ثقافة محددة يقع بالتأكيد ضمن مجال "الجغرافيا الثقافية"، التي يشير مارك جيه. سميث إلى أن **الجغرافيا الثقافية** تأخذ في الاعتبار تشكيل الهويات بالنسبة للمكان والموقع. الطريقة التي نرى بها أنفسنا بالنسبة للأماكن التي نعيش ونعمل ونلعب فيها هي في حد ذاتها منتج معقد للحدود التي نرسمها بين أنفسنا والآخرين. وأنواع الحدود التي نرسمها لها تأثير من خلال شمول الآخرين أو استبعادهم. كما تعد **مؤسسة التعليم** مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمؤسسة الإنجاب وتربية الأطفال. حيث يشمل التعليم إعداد الشباب للانضمام إلى الجماعة البشرية، كلما تم تكليفه لأشخاص محددين ومواصلة تنفيذه بأهداف محددة ووسائل معينة. إنه الجانب المخطط بعناية من العملية العامة الأوسع المعروفة بالتماسك الاجتماعي. وتعد هذه العملية الوسيلة التي يُكتسب بها الأشخاص العادات والحدس والمواقف والمعايير والقيم والمفاهيم والمعتقدات الخاصة بجنسهم عموماً —وبثقافتهم الفرعية المباشرة على وجه الخصوص. وهي توفر عملية التَحَضُّر الشامل اللازم الذي بدونه يكون أعضاء جنسنا عاجزين عن العمل في المجتمع المتحضر.

من خلال هذه العملية فقط يتمكن الأطفال من "استيعاب" أفكار الجماعة البشرية، وفي نهاية المطاف، صقلها وتحسينها؛ أو، عند الحاجة، اختيار ما يناسبهم والتخلص مما لا يناسبهم. من المهم أيضًا ملاحظة **دور التاريخ** في تشكيل الثقافة. لقد كان التاريخ دائمًا عنصرًا مهمًا في تشكيل «التراث» الثقافي. ترى جودي جايلز وتيم ميدلتون ، عند توسيع العلاقة بين الثقافة والتاريخ، أن التاريخ هو «ممارسة أساسية في عمليات الثقافة» ويرون أنه «جانب واحد من الثقافة والهوية». كما يواصلون شرح دور التاريخ، مشيرين إلى أن «التاريخ هو إحدى الطرق التي يكتسب بها البشر هوياتهم ويفهمون العالم وتجاربهم فيه. التفكير في كيفية تمثيل الماضي، وكيفية نقل الأفكار حوله في الحاضر، يمكن أن يقدم رؤى حول العملية التي يتم من خلالها إنتاج المعنى وتداوله».

شكراً